تفسير إبن كثير

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

وقوله : (إلا من رحم ربك) أي : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين . أخبرتهم به رسل االله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي - صلى االله عليه وسلم - الأمي خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ، ونصروه ووازروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة; لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : " إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة " . قالوا : ومن هم يا رسول االله ؟ قال : " ما أنا عليه وأصحابي " .رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادةوقال عطاء : (ولا يزالون مختلفين) يعني : اليهود والنصارى والمجوس (إلا من رحم ربك) يعني : الحنيفية .وقال قتادة : أهل رحمة االله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة ، وإن

اجتمعت ديارهم وأبدانهم .وقوله : (ولذلك خلقهم) قال الحسن البصري في رواية عنه : وللاختلاف خلقهم .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : خلقهم فريقين ، كقوله : (فمنهم شقي وسعيد) [هود : 105] .وقيل : للرحمة خلقهم . قال ابن وهب : أخبرني مسلم بن خالد ، عن ابن أبي نجيح ، عن طاوس; أن رجلين اختصما إليه فأكثرا فقال طاوس : اختلفتما فأكثرتما ! فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . كما قال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : 56] .وقيل : بل المراد : وللرحمة والاختلاف خلقهم ، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، (إلا من رحم ربك) فمن رحم ربك غير مختلف . قيل له : فلذلك خلقهم ؟ [قال] خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ،

وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه .وكذا قال عطاء بن أبي رباح ، والأعمش .وقال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال : فريق في الجنة وفريق في السعير .وقد اختار هذا القول ابن جرير ، وأبو عبيدة والفراء .وعن مالك فيما رويناه عنه في التفسير : (ولذلك خلقهم) قال : للرحمة ، وقال قوم : للاختلاف .وقوله : (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي االله عنه ، قال : قال رسول االله ، صلى االله عليه وسلم : " اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفة الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال االله عز وجل للجنة ، أنت رحمتي أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابي ، أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ االله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول

: هل من مزيد ؟ حتى يضع عليه رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك " .